مفهوم القصص القرآني وعلاقته بالتاريخ عند محمد أحمد خلف الله

The Quranic stories concept and its relationship to history for Muhammad Ahmad Khalaf Allah

د/فاطمة الزهرة فتاك*

قسم الأدب العربي-جامعة الشلف(الجزائر)

f.fettak@univ-chlef.dz

تاريخ الإرسال:2020/12/02 تاريخ القبول 2021/03/12 تاريخ النشر2022/06/16

ملخص:

لم يثر مفهوم القصص القرآني في الثقافة العربية الإسلامية قديما ، أي إشكال يذكر، إلى أن ظهرت حديثا مجموعة من الأعمال العربية لعرب ومستشرقين توّجت بالرسالة التي قدمها محمد أحمد خلف الله بعنوان" الفن القصصي في القرآن الكريم" تحت إشراف الأستاذ أمين الخولي سنة (1947-1948) لنيل درجة الدكتوراه من كلية الآداب بجامعة القاهرة، حيث أثارت هذه الرسالة جدلا واسعا في مصر، وردود أفعال رافضة لما ورد في الرسالة. وقد كان أغلب الذين هاجموا خلف الله لم يطلعوا على الرسالة مباشرة، وإنما حكموا عليها وعلى صاحبها من خلال ما تداولته الصحف حول رأي أعضاء لجنة المناقشة في الرسالة، وباستثناء بعض المناقشات ممن جاؤوا بعد تلك الحرب التي نشبت بين رواد التجديد ورواء التقليد، فإننا لم نجد بحثا مفصلا يناقش كل ما أورده خلف الله من حجج تدعّم رأيه في القصص، لذا حاولنا من خلال هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على بعض أجزاء هذه الرسالة وإعادة فتح ملفها من جديد، لأهمية الموضع وخطورته من جهة، ولتوظيف بعض الباحثين تعريف خلف الله للقصص المقدس دون أن يولوا اهتماما لأبعاد هذا التعريف، وأثره على قداسة القصص القرآني، ومن ثم على القرآن الكريم ككل.

الكلمات المفتاحية: القصص القرآني-التاريخ-محمد أحمد خلف الله-التجديد –المنهج الأدبي

Summary:

The Quranic stories concept in the Arab and Islamic culture in the past did not raise any problem until the thesis presented by Muhammad Ahmad Khalaf Allah entitled “Fictional Art in the Holy Qur’an” appeared under the supervision of Professor Amin Al-Khouli in

* أستاذة محاضرة بقسم الأدب العربي جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف-الجزائر

(1947-1948) to obtain a doctorate degree from the College of Arts At the University of Cairo, where this thesis has sparked widespread controversy in Egypt, and reactions that reject what was contained in the message, especially those related to the Quranic stories concept and its relationship to the history, to the point of accusing him as disbelieves in God. Most of those who attacked him did not read the thesis directly but rather judged it and its owner through what the newspapers circulated about the opinion of the discussion committee members, except some discussions who came after between the pioneers of renewal and the narrators of tradition.

Keywords: Quranic stories - History - Muhammad Ahmad Khalaf Allah - Innovation - literary curriculum

1- تمهيد:

عرف العرب القصص منذ الأزل كما عرفه سائر شعوب العالم، وقد كان هذا القصص جزءا مهما من حياتهم اليومية إلى جانب الشعر، فقد كان وسيلة لتسليتهم في أسمارهم، وفخرهم بأمجادهم، ونقل أخبارهم وأخبار غيرهم، ، كما كان وسيلة لترسيخ عقائدهم وممارسة طقوس عباداتهم، وتوريث تراثهم عبر الأجيال، للحفاظ على استمراره. وقد زادت أهمية هذا القصص وقوي تأثيره بظهور الإسلام، حيث انه شغل حيزا معتبرا من القرآن الكريم. وقد لعب هذا القصص القرآني دورا مهما في الدعوة إلى الله، وفي تصحيح الأخبار التي كانت متداولة في الوسط العربي عن الأمم السابقة، وعن الأنبياء والمرسلين، كما لعب دورا بارزا في تعجيز المشركين على الإتيان بمثل هذا القصص؛ فبالرغم من أن المادة كانت متوفرة لدى هؤلاء العرب، ممّا ورثوه من أخبار وقصص عن أسلافهم وممّا كانوا ينقلونه عن بعض علماء بني إسرائيل، وعن عامتهم ممن لا يعلمون الكتاب إلا أمانيّ. إلا أن هذه المادة لم تمكنهم من أن يأتوا ولو بآية.

وبالرغم من مكانة هذا القصص القرآني وأهميته، إلا أنه لم يحظ بدراسة مستقلة تبين سر إعجازه وتنظّر له، إذ إن دراسته كانت جزءا من دراسة القرآن ضمن إطار علم التفسير، لذا وردت إشارات تتحدث عن تعريف هذا القصص، في محاولة شرح كلمة قصة، التي ذكرت في القرآن الكريم في مواضع عديدة، ومن بين علماء التفسير الذين قدموا تعريفا للقصص في هذا الإطار، نجد فخر الدين الرازي الذي يقول في تفسيره للآية رقم 3 من سورة يوسف:" **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**" يقول الرازي: " القصص إتباع الخبر بعضه بعضا، وأصله في اللغة المتابعة قال تعالى"**وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ** "[1]، أي اتبعي أثره. وقال تعالى"**فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا**"[2] أي إتباعا وإنما سميت الحكاية قصصا، لأن الذي يقص الحديث يذكر القصة شيئا فشيئا"[3]، حيث يتضمن هذا القول تعريفين، الأول يمثل تعريفا لغويا لكلمة قصة والثاني تعريفا اصطلاحيا لها ، وقد حاول الرازي التقريب بينهما فجعل التتابع هو القاسم المشترك بين الدلالتين.

وقد أضاف الرازي في موضع آخر من تفسيره، عند تفسير قوله تعالى "**إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ** "[4] قوله:" والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة، فبيّن تعالى أن الذي أنزله على نبيه هو القصص الحق ليكون على ثقة من أمره..."[5]، وفي هذا القول الأخير تعريف للقصص بشكل عام عن طريق ربطه بوظيفة محددة، هي الهداية والإرشاد أي الدعوة إلى الله، وتبيان لحقيقة

القصص القرآني بأنه القصص الحق الذي يقوي به رسول الله حجته أمام المعاندين من مشركي قريش ويهود المدينة.

أما المحْدَثُون العرب فقد بدؤوا يهتمون بالتنظير للقصص بشكل عام وللقصص القرآني بشكل خاص لأسباب عديدة من بينها نمو الفن القصصي وتطوره في الثقافة العربية والأجنبية، ومجاراة للاهتمامات الغربية التي وضعت نظريات ومناهج لا حصر لها لدراسة هذا الفن القولي، ولسبب آخر دفع إلى التركيز على دراسة القصص القرآني بالذات، هو محاولات التجديد في دراسة القرآن الكريم وتفسيره اعتمادا على المناهج الحديثة، قام بها عرب ومستشرقون، ومن هؤلاء المستشرقين نجد: تيودور نولدكه في كتابه " تاريخ القرآن" (1937) وسايدر سكاي "مصادر القصص الإسلامية في القرآن وقصص الأنبياء" (1932)، وسابير جريفنا في " القصص الكتابي في القرآن" (1939)، و أرثر جفري في " مصادر تاريخ القرآن"، وبيرنات هيلر في:"قصص القرآن"، وأبراهام غايغر في " ماذا أخذ القرآن من اليهودية"، وغيرهم من المستشرقين الذين حاولوا من خلال مؤلفاتهم الدفع إلى تجاهل التفاسير القديمة وإهمالها، وخلق أسلوب جديد لدراسة القرآن يمكّنهم من تشكيك المسلمين في كتاب الله عز وجل[6].

أما العرب فقد تزعم حركة التجديد مجموعة من الباحثين على رأسهم رواد مدرسة المنار أو كما تعرف بالسلفية الإصلاحية، التي تزعّمها محمد عبده تلميذ جمال الدين الأفغاني، وقد دعت هذه المدرسة إلى العودة إلى البيان العربي في مصادره الأولى ليتمكن الإنسان المعاصر من فهم مقاصد القرآن الكريم[7]، أي تجاوز التفاسير القديمة لغايات إصلاحية على مستوى الفكر والمجتمع، وقد مهد هذا التيار الطريق أمام مدرسة الأمناء أو المدرسة البيانية التي تزعمها أمين الخولي الذي تتلمذ على يديه مجموعة من أتباعه أهمهم شكري عياد، وعائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، ومحمد أحمد خلف الله، هذا الأخير يعد أبرز تلاميذ مدرسة الأمناء، حيث لم يثر أحد من أبناء هذه المدرسة الضجة التي أثارها خلف الله في كتابه "الفن القصصي في القرآن الكريم"[8]، حيث عرض خلف الله في هذا الكتاب وجهة نظره في مجموعة من القضايا وزّعها على أربعة أبواب هي: المعاني والقيم التاريخية والاجتماعية والخلقية والدينية، والفن في القصة القرآنية، ومصادر القصص القرآني، ونفسية الرسول وقصص القرآن.

ولعل أهم قضية أثارها خلف الله هي قضية مفهوم القصص القرآني وعلاقته بالتاريخ، وتكمن أهميتها بأنها ترتبط مباشرة بقضية الصدق والكذب. حيث تعد محاولة لإثبات أن هذا القصص قائم على الخيال ولا علاقة له بالتاريخ الحقيقي أي محاولة لإثبات عدم صدق جزء من القرآن الكريم.

ولهذا السبب إرتأينا أن نناقش أراء خلف الله في هذه القضية، ساعين إلى الإجابة عن الإشكالية الآتية: ما مدى منطقية الحجج التي يقدمها خلف الله لإثبات أن القصص القرآني هو خيال لا علاقة له بالواقع أو التاريخ.

متبعين في ذلك منهجا وصفيا نقديا، ومستشهدين ببعض آراء محمد حسين الخضر التي نتفق معها.

2-مفهوم القصص عند محمد أحمد خلف الله:

قبل الحديث عن تعريف القصص عند خلف الله، لابد من إشارة موجزة إلى خلفيته الفكرية والمنهجية حيث يعد محمد أحمد خلف الله باحثا مصريا معاصرا، درس بالأزهر وبكلية الآداب بالقاهرة التي تخرج منها مجازا سنة 1939م، ومن أساتذته طه حسين، ومصطفى عبد الرزاق، وأحمد أمين، وأمين الخولي، سجل مع هذا الأخير رسالة دكتوراه عن الفن القصصي في القرآن الكريم، التي نوقشت سنة 1947، وقد رفضت هذه الرسالة بسبب ما احتوته من أراء، وطُلب من خلف الله أن يتقدم بأطروحة جديدة، ولكن هذا لم يمنعه من طبع هذه الرسالة في كتاب سنة 1953 ثم توالت الطبعات[9].

تأثر محمد خلف الله بأستاذه أمين الخولي تأثرا بالغا، حيث أخذ عنه منهجه في التعامل مع القرآن الكريم، المتمثل في منهج التفسير الأدبي للقرآن، الذي انطلق فيه أمين الخولي من فكرة أن القرآن نص أدبي، حيث يقول عن القرآن بأنه:" كتاب العربية الأكبر، وأثرها الأدبي الأعظم...فالعربي القح، أو من ربطته بالعربية تلك الروابط، يقرأ هذا الكتاب الجليل، ويدرسه درسا أدبيا، كما تدرس الأمم المختلفة عيون آداب اللغات المختلفة وتلك الدراسة الأدبية، لأثر عظيم كهذا القرآن، هي ما يجب أن يقوم به الدارسون أولا، وفاء بحق هذا الكتاب ولو لم يقصدوا الاهتداء به، أو الانتفاع مما حوى وشمل. فالقرآن كتاب الفن العربي الأقدس، سواء نظر إليه الناظر على أنه كذلك للدين أم لا"[10]، وبذلك يمكن أن نتعامل مع القرآن حسب أمين الخولي كما نتعامل مع النصوص الأدبية، أو بمعنى آخر التعامل مع القرآن دون النظر إلى مسألة قداسته، وهذا ما أكده في فقرة لاحقة بقوله:" وهذا الدرس الأدبي للقرآن في ذلك المستوى الفني، دون نظر إلى أي اعتبار ديني، هو ما نعتده وتعتده معنا الأمم العربية أصلا، والعربية اختلاطا، مقصدا أول، وغرضا أبعد يجب أن يسبق كل غرض ويتقدم كل مقصد."[11]، والعربية اختلاطا حسب فهمنا للقول هم المستشرقين، الذين دعوا إلى التعامل مع القرآن باعتباره نتاجا تاريخيا وليس وحيا وعقيدة دينية[12].

هذا الموقف تبناه محمد أحمد خلف الله وعلى أساسه قدّم دراسته عن القصص القرآني، حيث وظّف فيها منهج الخولي من خلال اهتمامه بالجانب اللغوي والبياني إضافة إلى استفادته من علمي الاجتماع والنفس[13] وقد اعترف بهذا التأثر في مقدمة كتابه فن القصص القرآني، التي شرح فيها كيف تشرّب منهج الخولي منذ كان طالبا يدرس مادة الدراسات القرآنية عنده، حيث يقول." أما الأسباب التي جعلتني أعنى بالدراسة الأدبية وأجعل من القرآن ميدان أبحاثي فيها فترجع قبل كل شيء إلى نوع من الاستهواء عمل على إذاعته في نفسي درس أستاذنا الخولي عن المنهج الأدبي في فهم القرآن وتفسيره فقد كانت تلك اللفتات تستقر في نفسي استقرارا يجعلني أتخيّل أني أستطيع تمثّل هذا المنهج والسير عليه في تفسير كتاب الله"[14] .

هذا المنهج لم يكن واضحا في رسالته للماجستير المعنونة بـ" جدل القرآن الكريم"[15] نظرا لعدم تمكنه الجيد من هذا المنهج ، حيث يقول في ذلك :" واخترته وما كنت قد تبيّنت تماما ذلك المنهج الأدبي، فلم تكن أصوله قد استقرت في نفسي استقرار الحقائق الواضحة وما كنت اطمع أكثر من دراسة القرآن على منهج

الأصوليين في الدرس فإن انحرفت فاستجابة لشيء مبهم لم يتضح بعد الوضوح الكافي"[16] أما في رسالة الدكتوراه فقد أصبح الوضع مختلفا، إذ تمكن خلف الله –إضافة إلى ما اكتسبه من أستاذه أمين الخولي– من الإطلاع على الكثير من الأعمال النقدية الغربية خصوصا ما ألّفه الانجليز، وقد أعجب خلف الله بمنهجهم في دراسة الأدب حيث أنهم جمعوا بين دراسة الأدب وتاريخه، وهو ما كان ينقص كليتهم وقسمهم –على حد تعبير خلف الله ولذلك رأى أن القصص القرآني يمكن أن يحقق الغرض المنهجي في الدراسة الأدبية الجامعية[17]، فكانت مبادرته التي زلزلت الجامعة المصرية وبقي أثرها إلى يوم الناس هذا.

أما عن تعريف القصص القرآني من منظور هذا المنهج، فقد عرّف محمد أحمد خلف الله القصص عموما بما فيه القصص القرآني بأنه: "ذلك العمل الأدبي الذي يكون نتيجة تخيل القاص لحوادث وقعت من بطل لا وجود له أو لبطل له وجود ولكن الأحداث التي دارت حوله في القصة لم تقع أو وقعت للبطل ولكنها نظمت في القصة على أساس فني بلاغي، فقدم بعضها وأخّر آخر وذكر بعضها وحذف آخر أو أضيف إلى الواقع بعض لم يقع أو بولغ في التصوير إلى الحد الذي يخرج بالشخصية التاريخية عن أن تكون من الحقائق العادية والمألوفة ويجعلها من الأشخاص الخياليين[18]، وقد أكد على أنه لا يستثني القصص القرآني من هذا التعريف بقوله:" ذلك هو الذي نقصده عندما نذكر لفظة قصة في الميدان الأدبي وهو الذي نقصد إليه من درسنا للقصص الفني في القرآن الكريم"[19].

إن المتأمل في هذا التعريف يقف عند نقطتين مهمتين هما:

– يوّلد عنصر التخيّل أحداثا لبطل معين لا وجود له.

– يضيف هذا التخيل أحداثا لم تقع أو يغيّر أخرى وقعت لبطل موجود حقيقة، فيجعل الشخصية التاريخية شخصية خيالية.

والمعلوم بالضرورة أنّ كل كلام يتصف بهذه المواصفات هو كلام غير مطابق للواقع، وكل كلام غير مطابق للواقع يعدّ كذبا، بغض النظر عن نوع هذا الكلام أكان أدبيا أم غير أدبي. وإن كان الكذب في الأدب يعدّ إبداعا، ويزيد من جمالية الأدب وتأثيره، فإنه في باقي أنواع الخطاب الأخرى يعد عيبا ونقصا يُفقد الخطاب مصداقيته وجماله.

وقد ردّ محمد الخضر حسين على جوهر هذا التعريف المتعلق بالصدق التاريخي للقصص القرآني فيقول إن:" ما يرد في القرآن على وجه الإخبار لا يكون إلا موافقا للواقع، هذا ما يقتضيه الإيمان بأنه تنزيل من عليم حكيم، ولو أجزنا أن يكون فيه أقوال غير مطابقة للواقع، لكان معنى ذلك: أن من أقواله ما يكون كذبا، وليس الكذب سوى عدم مطابقة الكلام للواقع. وإذا كان الفضلاء من الناس يتبرؤون من أن يقولوا زورا، ويعدّونه في أقبح الرذائل المزرية بالإنسانية، فما كان لنا أن نلصقه بكلام ذي العزة والجلال ناظرين إلى مقام الربوبية كما ننظر إلى شاعر أو كاتب قد يعجز عن أن يظهر براعته الفنية في الحوادث الواقعة تاريخيا"[20]

كما يضيف الخضر حسين في موضع آخر معلقا على التعريف بقوله أن:" هذا الذي يقوله الكاتب إنما ينطبق على القصص التي يقصد من تصنيفها إظهار البراعة في صناعة الإنشاء، أو في إجالة الخيال، أو بعض الارتياح والمتعة في نفوس القارئين؛ مثل مقامات بديع الزمان، أو مقامات الحريري...أما قصص القرآن، فهو كلام رب العزة، أوحى به إلى الرسول الأكرم إيمان الناس بأنه صادر من ذلك المقام الأسنى يجعل له في قلوبهم مكانة محفوفة بالإجلال، ويمنعهم من أن يدرسوه كما تدرس تلك القصص الصادرة من نفوس بشرية تجعل أمامها أهدافا خاصة، ثم لا تبالي أن تستمد ما تقوله من خيال غير صادق، أو تخرج من جد إلى هزل، وتضع بجانب الحق باطلا"[21].

وبهذا المنظور يعد تعريف خلف الله غير جامع ولا مانع، إذ إنه لا ينطبق حقيقة على كل أنواع القصص فالقصص القرآني هو خارج هذا التعريف-وإن ادّعى خلف الله ذلك، كذلك القصص الواقعي أو التاريخي، الذي يمكن أن يجمع الصدق والفن معا. ومن ثم، فمحمد أحمد خلف الله يقع في النظرة الجزئية التي وقع فيه الرازي،حين رأى أن القصص بشكل عام هو ما يدعو إلى الله-كما رأينا سابقا، فإن كان تعريف الرازي لا يشمل القصص الذي أنشئ لغرض غير ديني، فتعريف خلف الله لا يشمل القصص الديني الذي ثبت صدقه بالنص الديني فالقصة لا تكون نتيجة التخيّل فقط، بل قد تكون حقيقة وقعت من بطل له وجود والأحداث التي دارت حوله في القصة وقعت بالفعل له، ولكنها نظّمت في القصة على أساس فني بلاغي، فقدم بعضها وأخّر آخر، وحذف حدث وترك آخر. ولكن الأحداث لم تتغير.

وإن كان الخيال تفسير لكل ما هو عجيب، ففي حياة الناس ما هو أعجب من العجيب. وإن استعمل الإنسان الخيال لتصوّر وتصوير ما خفي عنه، فالله يعلم السر وما أخفى، فإن قص علينا قصة فهو عليم بحيثياتها. وبهذا الشكل فحجة خلف الله المتمثلة في أن القصص لا بد من أن يتوفر على الخيال باطلة لأن الخيال خاصية بشرية، وحاشا لله أن يتصف بما اتصف به البشر.

1-علاقة القصص القرآني بالتاريخ:

كثر الحديث عن علاقة القصص القرآني بالتاريخ، وعن قضية الصدق في هذا القصص، ومدى مطابقته للواقع، وذلك في محاولة تعريف هذا القصص، وقد تحدث محمد خلف الله في هذا الشأن حديثا مستفيضا تعرض بسببه لانتقاد شديد، سنلخص أهم ما ذكره فيما يتعلق بهذا العنصر، مع مناقشة أرائه وبيان بطلان الحجج التي يقدمها، وذلك فيما يأتي:

بدأ محمد خلف الله كلامه عن مسألة التاريخ وعلاقته بالقصص، في الباب الأول من كتابه الفن القصصي في القرآن الكريم، في عنصر المعاني التاريخية، حيث ذكر ما مفاده أن العلماء القدامى حين حاولوا أن يثبتوا صدق القصص القرآني، وقعوا في معضلة كبيرة، تتمثل في عدم قدرتهم على المطابقة بين ما ورد في القرآن وما

ورد في التوراة، وذلك انطلاقا من أن التوراة كانت الحكم الفصل، في التأكد من صدق أي كلام ينسب إلى الذات العلية، هذا المقياس لم يضعه العلماء اجتهادا بل اعتمادا على ما كان سائدا في عصر البعثة المحمدية وما قبله بقليل، إذ كان لليهود الحق في معرفة الصادق والكاذب ممن يدّعون النبوة لأنهم أهل كتاب، ولأن أغلب الرسل والأنبياء بعثوا لهدايتهم، وغيرهم لم يكن لهم كتاب منزّل. وكان مقياسهم في هذا هو معرفة أخبار السابقين من الرسل والأنبياء ومن خفيت على الناس أمورهم. وقد ضرب خلف الله مثالا على ذلك بسبب نزول سورة الكهف المتمثل في إرسال قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة؛ لسؤالهم عن محمد وصفته، فطلبوا منهم اختباره، بسؤاله عن ثلاث؛ عن الفتية الذين ذهبوا في الدهر الأول، وعن رجل طوّاف، وعن الروح. فإن أخبرهم عن خبرهم فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل[22].

ويضيف خلف الله قائلا: "والظاهرة التي يحسن بنا الالتفات إليها في هذا المقام هي أن القرآن حين جعل هذه الأخبار من آيات النبوة وعلامات الرسالة جعلها أيضا مطابقة لما في الكتب السابقة أو لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار، حتى ليخيّل إلينا أن مقياس صدقها وصحتها من الوجهة التاريخية ومن جهة دلالتها على النبوة والرسالة أن تكون مطابقة لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار"[23]، وقد قالها خلف الله "يخيل إلينا" وليس حقيقة لأنه لا يوجد دليل نقلي، ولا يعقل أن يوجد دليل على أن صحة ما جاء في القرآن لا يمكن الجزم به إلا بمقارنته بالتوراة، ولو كانت التوراة في نسختها الأصلية التي أنزلت على موسى عليه السلام، لانتفى المانع العقلي، ولكن التوراة حرّفت قبل أن يبعث محمد رسولا ، وذلك بنص الآية الكريمة:"**إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**" [24] وتفسير هذه الآية حسب ابن كثير، أن الله تعالى يقول " مخبرا عن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من الهدى والبيّنات والفرقان: أنه يقص على بني إسرائيل- وهم حملة التوراة والإنجيل- "أكثر الذي هم فيه يختلفون"، كاختلافهم في عيسى وتباينهم فيه، فاليهود افتروا، والنصارى غَلَوا، فجاء إليهم القرآن بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام..."[25] كذلك الآية الكريمة:" **مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ**..."[26]، وأيضا قوله تعالى :" **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ**"[27]وغيرها من الآيات الدالة على تحريف اليهود للتوراة. وهذا التحريف نجده ظاهرا في قصص الأنبياء الواردة في التوراة، من خلال ما ذكر فيها من أفعال قبيحة نسبت إلى أنبياء، يأنف عن فعلها أخس البشر، فكيف بخيرة البشر.

وبذلك، لو كان هناك منطق في القياس لقيست التوراة على القرآن وليس القرآن على التوراة، فالقرآن يؤكد صحة ما فيه بقوله "**لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**"[28] وقوله أيضا

جل شأنه:" **إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ** ..."[29]، يفسر ابن كثير هذه الآية بقوله :" أي: هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا مَعْدل عنه ولا محيد"[30]، وبذلك فالقصص القرآني هو حق وليس باطلا، والحق هو الصدق والصدق هو مطابقة الواقع، والباطل هو الكذب والكذب هو مخالفة الواقع. إذا، كان الأجدر أن يُبحث في قصص التوراة، لتعرف نسبة الصدق فيها، وتعرف مواطن التحريف التي لحقتها؛ وذلك بمقارنتها بالقرآن الكريم وليس العكس.

ومن جهة أخرى فقد أثبت الغربيون كذب ما تضمنته التوراة من خلال الاستعانة بعلم الآثار، كالدراسة النقدية التي قام بها إسرائيل فنكلشتاين ونيل إشر سيلبرمان[31]، المعنونة بـ" التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها رؤية جديدة لإسرائيل القديمة وأصول نصوصها المقدسة على ضوء اكتشافات علم الآثار"، وإن كانت فيها مبالغة، لدرجة مناقشة حتى وجود أنبياء بني إسرائيل المشهورين كداود وسليمان عليهما السلام، إلا أنها أثبتت تحريف التوراة في مواضع بيّن القرآن تحريفها.

وبذلك فنفي الواقعية عن القصص القرآني؛ بحجة أن ذلك يعرضه للتكذيب، لأنه يخالف ما ورد في التوراة، هو أشبه بنفي الضياء عن الشمس لأن الأعمى لا يراه.

يواصل خلف الله الكلام في هذا المقياس الديني اليهودي، وفي تبعات تبنيه، وأنه جعل المسلمين يحرصون على فهم القصص القرآني على أساس التاريخ،" ولو أنهم أعرضوا عن هذا الأساس وحاولوا فهم القرآن على أساس من الفن الأدبي أو البياني البلاغي لأغلقوا هذا الباب الذي جاءت منه الريح ولسدوا على المشركين والمبشرين السبل وحالوا بينهم وبين الطعن في النبي عليه السلام وفي القرآن الكريم"[32].

لقد صدق خلف الله في هذا، لأن هؤلاء المسلمين لو تركوا تكلّف معرفة ما أبهمه القرآن، من عنصري الزمان والمكان وهوية الأشخاص، في كثير من القصص، لجنبوا أنفسهم وغيرهم تعزيز المقياس الديني اليهودي في إثبات صدق القصص القرآني بمقارنته بالتوراة، وإدخال الكثير من الاسرائيليات إلى تفاسير القرآن، مما كانت له تبعات خطيرة على تفسير القرآن وتأويله.

ويقدّم خلف الله مثالا عن تبعات فهم القصص باعتماد الأساس التاريخي، ما ورد في قصة عيسى عليه السلام في سورة النساء الآية 157، حيث قال الله تعالى:" **وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ** " وقد ذكر في مواضع عديدة أن قول اليهود أن "عيسى ابن مريم رسول الله"، غير صحيح ، فهم لم يقولوا ذلك، يقول خلف الله" ... لا يمكن أن يفهم على أنه قد صدر حقا عن اليهود، فهم لم ينطقوا بهذا الوصف وإنما القرآن هو الذي أنطقهم به"[33] ويؤكد الأمر في موقع آخر بقوله:"... فهم لم يقولوا هذا القول وإنما أنطقهم

به القرآن"[34]ويبرر خلف الله هذا الحكم بقوله:" لأن وصفه بالرسالة ليس إلا التسليم بأنه رسول الله وهم لم يسلموا بهذا ولو سلّموا بها لأصبحوا مسيحيين ولما كان بينهم وبينه أي لون من العداء ولما كان قُتل وصُلب..."[35]وقد حاول أن يعضد حكمه بما ورد في الكشاف بالرغم من أن ما ذكر فيه لم يكن كما ذكر خلف الله، إذ يقول صاحب الكشاف في تفسيره لهذه الآية:"... قالوه على وجه الاستهزاء كقول فرعون " **قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ**". ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح في الحكاية عنهم رفعا لعيسى عما كانوا يذكرونه به وتعظيما لما أرادوا بمثله كقوله:" **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**"[36] ولو أمعنا النظر في قول صاحب الكشاف، لأدركنا الفرق بينه وبين قول خلف الله، فصاحب الكشاف لم يقل أن الله قوّلهم ما لم يقولوا، بل جعل المسألة على احتمالين هما: الاحتمال الأول أنهم قالوا ذلك استهزاءً، وهم بذلك قالوه بغض النظر عن قصدهم، والاحتمال الثاني أن القول في الآية ليس قولهم بالأساس؛ أي إن القول جملة اعتراضية، وهي تصحيح من الله لهم، كما في قصة ملكة سبأ حين قالت كما في الآية الكريمة:" **قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ**"[37]، فقد قال ابن عباس أن القول الأول هو لبلقيس بينما القول الثاني وهو "وكذلك يفعلون" هو قول الله عز وجل[38]، إذا، فلا مبرر لحكم خلف الله على هذه الآية.

وبذلك فقد أخطأ من حاول أن يدقق في القصص القرآني، ويبحث عن عناصر التاريخ التي أهملها القرآن، في غير القرآن. ولكن هذا لا يعني أبدا أن ما ذكره القرآن مجانب للصحة، وأنه محض اختراع لتحقيق أغراض أدبية.

وهذا التكذيب لم يقتصر على هذه الآية وحدها، بل تجاوزه إلى كثير من الآيات في قصص مختلفة نفى عنها الواقعية، منها على سبيل المثال ما تعلق بمساعدة الملائكة للمسلمين في غزوة بدر وأحد، مصداقا لقوله تعالى:" **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (124) بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ(125)** "[39]، إذ يقول خلف الله:" وبان للعقل الإسلامي أنه لا يستطيع أن يتصور مساعدة الملائكة للمسلمين في غزوتي بدر وأحد، اللهم إلا أن يكون حديث القرآن عن ذلك حديث مَن يأخذ الناس بعقائدهم تقوية للروح المعنوية وبثا للأمل القوي بالانتصار السريع في النفوس"[40]، والرد هنا هو: أيعقل أن يعِد الله المسلمين ورسولُه بألف من الملائكة منزلين، ثم يخلف

وعده، بحجة أن الوعد هو فقط من باب إغرائهم لتقوية روحهم المعنوية. فهذا رسول الله ينهى عن وعد الأطفال بالعطايا ثم إخلاف الوعد، لأنه يعَدُّ كذبا، فكيف بالله العظيم –تعالى الله عن هذا الأمر علوا كبيرا– وفي معركة فاصلة بين الحق والباطل. فهذا مما لا يتقبله عاقل ناهيك عن مسلم!

والأمر يصدق على كل الأمثلة، التي ذكرها خلف الله، فيما تعلّق بعيسى عليه السلام وبالحوار الذي دار بينه وبين الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، والحوار الذي دار بين المشركين في جهنم، وبينهم وبين الشيطان وغروب الشمس في عين حمئة، وأوثان قوم نوح التي عبدها العرب، وان كان استشهد عليها بقول المفسرين أمثال صاحب المنار والكشاف وغرائب القرآن[41]، ولكن هذه الاستعانة تصدق عليها الآية الكريمة" **يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ** "[42]، وحتى إن قال هؤلاء العلماء بمثل قول خلف الله، فهم ليسوا حجّة على القرآن، بل القرآن حجّة عليهم جميعا.

وخلف الله يحاول أن يثبت صدق أحكامه على القصص القرآني بتقديم الحجج والبراهين ومن هذه الحجج قوله أن:" القرآن يجري كما ترى في فنه البياني على أساس ما كانت تعتقد العرب وتتخيل، لا على ما هو الحقيقة العقلية، ولا على ما هو الواقع العملي، ولعله أن يكون من ذلك حديث القرآن عن المنافقين في قوله تعالى:" **إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (1)**" فإنا نراه يقيّم تكذيب المنافقين على أساس ما يعتقدون لا على أساس ما هو الحق والواقع، فلقد كان المنافقون يعتقدون أن محمدا غير مرسل من ربه، وكان الحق والواقع أنه الرسول وقيل المنافقين له إنك رسول الله يتفق مع الحق ويختلف وما يعتقدون، ومن هنا رماهم القرآن بالكذب وحذّر النبي عليه السلام منهم"[43].

وهذا قياس باطل لأن هذه القضية غير تلك، فقضية المنافقين لها علاقة بظواهر الأمور وبواطنها؛ أي الواقع كما هو في الحقيقية، والواقع كما تدركه حواس البشر القاصرة، وليس له علاقة بحكاية الواقع من عدمه، فالله عندما يخبرنا بشيء ليس بالضرورة أن يكون هذا الشيء مما تدركه حواس البشر، أو مما علمه البشر وحضروه، فمن كان مع مريم عليها السلام حين انتبذت من أهلها مكانا قصيا وفاجأها المخاض عند جذع نخلة[44]، هل عدم رؤية الناس لها ولما جرى لها عندما خرجت حاملة عيسى عليه السلام في بطنها، فهل هذا ليس واقعا لأن البشر لم تره؟ أم ماذا يعني الواقع بالنسبة لخلف الله؟ !

إضافة إلى هذا فقد ذكر الله سبحانه تعالى قول المنافقين وذكر اعتقادهم، وذكر الواقع أيضا، أي لم يكتف بذكر قولهم المخالف لاعتقادهم، وإلا أصبح وصفهم بالمنافقين نقضا لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

بل يذهب خلف الله أبعد من ذلك، حين يرى أن القرآن تدّرج في الكذب، حتى يهدم عقيدة المشركين في الجن، وأنهم كانوا يستمعون إلى السماء ليعرفوا أخبارها، ثم ينقلوها إلى الكهان، الذين يدّعون معرفة الغيب باعتبار أن هذه العقيدة هي أولى العقبات في وجه الدعوة الإسلامية، فانطلق القرآن حسب زعمه أولا من تثبيت فكرة رجم شياطين الجن الذين كانوا يسترقون السمع، ثم انتقل بعد استقرار الأمر في البيئة العربية، إلى أسلوب آخر في محاربة الفكرة :" فادَّعى أن الجن ما كانت تعلم الغيب وأنها لو كانت تعلمه ما لبثت في العذاب بعد أن فارق سليمان عليه السلام الحياة" **فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ**"[45][46].

يرد محمد الخضر حسين على هذا الادعاء بقوله:" لم يقرر القرآن أن الجن لا يعلمون شيئا وإن قال في قصة وفاة سليمان عليه السلام: "**مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** "[سبا: 14]. فالآية إنما نفت عن الجن علم الغيب وهو ما يحصل للعالِم ذاته، ومن هنا كان مختصا بالخالق-جل شأنه-قال تعالى:" **قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ** "[النمل: 65]، فدلّت الآية على أن علم الغيب خاص به تعالى، وأما غيره فلا يعلم الأشياء الغائبة عنه بذاته، وإنما يعلم منها ما يعلّمه الله، كما قال تعالى:" **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ**" [الجن: 26-27]. ومن هنا نفهم كيف ينفي النبي-عليه الصلاة والسلام- عن نفسه علم الغيب، مع أن الله قد أظهره على أشياء كثيرة كانت غائبة عنه"[47] ويضيف الخضر :" فنفي علم الغيب عن الجن لا ينافي أنهم يعلمون بعض الأشياء بطريق من طرق العلم الخفية فكاتب الرسالة مخطئ في فهمه أن بين الآية التي تثبت للجن العلم ببعض الشيء، والآية التي تنفي منهم علم الغيب، تناقضا"[48]

ويقول خلف الله أيضا في موقع آخر عند الحديث عن صيغة الماضي التي وردت بها الأفعال في الكثير من القصص التي تحكي عن المستقبل، خصوصا ما تعلق بيوم القيامة كما كان من الحوار الدائر بين أهل النار فيما بينهم، وحوارهم مع الشيطان، يقول أن القرآن يريد أن يضع المسألة" موضع الأمر الذي وقع ومضى فجاء بالصيغة الدالة على ذلك وهي صيغة الماضي الذي يؤكد وقوع الفعل أو بعبارة حديثة صوّر هذا المنظر بالصورة التي تدل على الإيهام بالواقع"[49] وقد استوقفتنا الكلمة الأخيرة وهي الإيهام بالواقع، فكيف يوهمنا والحدث بالفعل واقع يوم القيامة، ولو أردنا الحق بالفعل، لقلنا أن القرآن ينقل المتلقي بتلك الصيغة إلى المستقبل ليستمع إلى ذلك الحوار- أعاذنا الله من سماعه يوم القيامة- وليس إيهامنا بوقوع ما لم يقع، وذلك لنتيقن بالفعل مما سيحدث من أحداث وما يدور من جدال يوم القيامة. وهذا شأن كل ما تعلق بالآخرة عند خلف الله.

وبعد عرض خلف الله للأمثلة التي يظن أنها تثبت رأيه، يضيف أمورا أخرى يرى أنها تدل على أن صنيع القرآن في قصصه التاريخي ليس إلا الصنيع الأدبي، وقد لخص هذه الأمور فيما يأتي[50]:

أ- الجمع بين العناصر التي باعد بينها الزمن لا في حياة الرسول الواحد بل في حياة الأمة الواحدة، أو حياة البشرية.

ب- إنطاق الأشخاص بما لم ينطقوا به مراعاة لأمور اعتبارية.

ج- إسناد الأحداث لأشخاص بأعيانهم في مواطن ثم إسناده الأحداث نفسها لغير الأشخاص في موطن آخر.

ويحاول خلف الله أن يلخص كلامه حول مسألة القصص، خصوصا ما ارتبط بمحاولة إثبات نبوة محمد بقوله:" وأعتقد أن قد وضح أيضا أن القرآن قد قص في القصص التي كانت موطن الاختبار لمعرفة نبوة النبي عليه السلام وصدق رسالته ما يعرفه أهل الكتاب عن التاريخ لا ما هو الحق والواقع من التاريخ، وأنه من هنا لا يجوز الاعتراض على النبي عليه السلام وعلى القرآن الكريم بأن بهذه الأقاصيص أخطاء من أخطاء التاريخ"[51]. وقد رد الخضر على ذلك بقوله:" إذا كان قص القرآن حوادث كان حديثها يدور بين العرب، أو أهل الكتاب، فإنما يقصها لقصد يعود على دعوته الشاملة بتأكيد، وهو- بعد هذا- لا يقص من تلك الحوادث إلا الواقع، وليس من المعقول أن يجاري القرآن العرب أو أهل الكتاب فيما يتسامرون به في مجالسهم، فيعرض منها ما ليس بواقع وهو تنزيل من علام الغيوب"[52].

بل يختم خلف الله فصل المعاني التاريخية بلفت ذهن القارئ: "إلى أنه إذا وضح لديه الوضوح الكافي بأن القصة القرآنية قد قصد منها إلى التاريخ فإنه يتعين عليه أن يؤمن بما جاء فيها على أنه التاريخ وذلك كتقرير القرآن لمسألة مولد عيسى عليه السلام وتقريره لمسألة إبراهيم عليه السلام وأنه لم يكن يهوديا ولا نصرانيا. أما التي يقصد منها إلى العظة والعبرة وإلى الهداية والإرشاد فإنه لا يلزم أن يكون ما فيها هو التاريخ فقد تكون المعارف التاريخية عند العرب أو عند اليهود، وهذه المعارف لا تكون دائما مطابقة للحق والواقع. واكتفاء القرآن بما هو المشهور المتداول أمر أجازه النقد الأدبي وأجازته البلاغة العربية وجرى عليه كبار الكتّاب ومن هنا لا يصح أن يتوجّه اعتراض على النبي عليه السلام أو على القرآن الكريم"[53].

ونحن نقول، هل هناك أكثر من هذا الاعتراض أن يُتهم القرآن بأنه يحمل الصدق والكذب بين دفتيه وأن نختار الإيمان ببعض لأنه تاريخ ونكذّب بعضا لأنه أدب، و إن كانت المسألة كما يصفها خلف الله، فما هو مقياس الاختيار بين القصص؟ وسؤال آخر؛ منذ متى كان النقد الأدبي والبلاغة حكما فصلا في العقائد والأديان؟؟ !

ينتقل بعدها خلف الله إلى نقطة أخرى وذلك في باب ما هي القصة؟ وهل في القرآن قصة فنية؟ ويبقى مع عنصر التاريخ بعدّه عنصرا أساسيا في قصص القرآني، التي يمثل فيها قصص التاريخ الأغلبية –إذا سلّمنا بتصنيف خلف الله للقصص القرآني خصوصا ما تعلق بنوعي القصص التاريخي والقصص التمثيلي. حيث يقول في كيفية تشكل القصة القرآنية:" يأخذ القرآن مواد القصص فيه، من أحداث التاريخ ووقائعه لكنه يعرضها عرضا أدبيا ويسوقها سوقا عاطفيا يبين المعاني ويؤيّد الأغراض ويؤثّر بها التأثير الذي يجعل وقعها على الأنفس وقعا استهوائيا خطابيا يستثير منها العاطفة والوجدان"[54]، أما ترتيب الأحداث فيه، فهو ترتيب عاطفي لا تاريخي فتبعا للقصد يكون الترتيب، يقول:" المنطق العاطفي هو الذي يسود القصة التاريخية في القرآن الكريم من حيث الاختيار أو بتعبير الأقدمين من حيث الذكر والحذف، وليس هذا فحسب بل هو الذي يسودها من حيث الترتيب، أو باصطلاح القدماء من حيث التقديم والتأخير. وليس هذا فحسب بل من حيث التصميم والبناء ومعنى ذلك أن القصص التاريخي في القرآن قصص أدبي أولا وأخيرا وهكذا تكون معجزة بلاغية قولية تفهم بأضواء الدرس الفني"[55].

وهذا يخدم النتيجة التي يريد أن يصل إليها خلف الله، كما قال :" لقد تقرر أن القرآن بشري الأسلوب جاء على سنن العرب في بلاغتهم وبيانها فهل بعد ذلك كله يأتي مَن يقول إن القرآن لا يفهم على هذه القواعد أو تلك الأساليب؟"[56]

لكن خلف الله نسي ركنا أساسيا في القرآن، هو الركن الإلهي إضافة إلى ما ذكر، فهو بالفعل إنساني العبارة بشري الأسلوب ولكن أيضا إلهي المصدر، وهذا ما يجعل له خصوصية في كل ما يشترك فيه مع الخطاب البشري، فكلام الله غير كلام البشر وان كانت اللغة واحدة.

ولم يتوقف خلف الله عند هذا الحد بل واصل عمله الدؤوب، لرفع المصداقية عن القصص القرآني، بالقول أن هناك من القصص ما هو محض اختلاق، كما في قصة حوار عيسى عليه السلام مع الله سبحانه وتعالى يوم القيامة حيث يقول:" ومن قوله تعالى في آخر سورة المائدة وصفا لموقف في الآخرة " **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ...**" [57] **إلخ**. فإن هذا القول وهذا الحوار تصوير لموقف لم يحدث بعد بل لعله لن يحدث..."[58]، وقد علّق محمد الخضر حسين على هذا القول بقوله: " ولا ندري ما هو الدليل الذي ينهض أمام هذه الآية، ويدل على أن القصة المشار إليها مخلوقة غير واقعة، والأدلة في مثل هذا إما نصوص تاريخية ثابتة الرواية، وإما أن يشعر المتكلم مخاطبه بأنه يريد تصويرا فنيا، وإما أن يبدو للمخاطب من طبيعة الحادثة ما يجعلها مستحيلة الوقوع، ولم يرد نص تاريخي ينفي ما اشتملت عليه القصة من خطاب الله

تعالى لعيسى وجواب عيسى عليه السلام- ولم يقل الله تعالى- لا صراحة ولا تلويحا-: إن هذه القصة مخلوقة غير واقعة، وإنما أريد تصوير حادثة تصويرا فنيا، وليس في القصة معنى يحكم العقل المنطقي باستحالته "[59].

وفي الأخير يمكن أن نجمل الرد على كل ما قاله محمد أحمد خلف الله عن القصص القرآني بما قاله عبد الكريم الخطابي في كتابه "القصص القرآني في منطوقه ومفهومه"، حيث قال:" فالقصص القرآني نهج وحده في موضوعه، وفي أسلوب أدائه، وفي مقاصده.. فهو في موضوعه نسيج خالص، وعصارة من الحقيقة المصفاة، لا تشوبه شائبة من وهم، أو خيال ! إنه يُبنى من لبنات الواقع، بلا تزويق ولا تمويه. وهذا الواقع لا يتغير وجهه حين يعرض هذا العرض المعجز، في ذلك الأسلوب القرآني الرائع.. فالإعجاز والروعة إنما يتجليان في صدق الأداء، وفي نقل الواقع وما تلبس به من سائر النفوس، وخلجات الصدور..وإنه ليس النقل "الفوتوغرافي" الذي يقف عند السطح"، ولا يتجاوز شيئا مما وراءه من أبعاد وأعماق ! بل هو نقل حي للأحداث، حتى لكأنها تتجسد في الزمان والمكان اللذين حملاها، فتظهر وكأنها في ساعة ميلادها"[60].

وهذا هو ما يبرر به عبد الكريم الخطابي تسمية ما ورد في القرآن بالقصة وليس بالحكاية ، إذ يقول في هذا الشأن:" عرض القرآن للأحداث الماضية ليس محاكاة لها، ولا تمثيلا لشخوصها ومشاهدها وإنما هو بعث لها وإعادة لوجودها، في اللفظ المعجز الذي ينقل إلينا الماضي أو ينقلنا إليه، فنطالع هناك وجوه الحياة، في زمانها ومكانها، حتى لكأننا أبناء هذه القطعة أو القطع من الزمن وأهله...فكان القصص أو القص أنسب لفظ يطلق على تلك الأنباء التي عرضها القرآن، إذ أن ذلك أشبه بقص أثر الشيء وتتبعه، ثم الوقوف عليه بذاته، لا على صورته أو ما يشبه صورته" [61].

خاتمة:

نختم هذه المناقشة لبعض ما ورد في كتاب محمد أحمد خلف الله بالقول إنه كان بإمكان من حاول إثبات عدم صدق قصص القرآن، أن يسعى إلى دراسة هذا القصص، من ناحية قدرته على الجمع بين الحقيقة والفن، أو تقديمه للحقيقة بشكل فني. فقصص القرآن تاريخ جميل، وجمال صادق، وهذا مما يصعب على البشر انجازه ولو بشكل نسبي، فكيف بالكمال الذي هو عليه هذا القصص.

فنحن لا يمكن لنا أن نهمل هذا الجانب من القصص، وهو واقعيته، لأن إيماننا بهؤلاء الرسل عليهم السلام، جزء من عقيدتنا، فالقرآن لم ينزل لتسليتنا، ولا لتثقيفنا، بل لنؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله. فكيف نؤمن بهم ونحن لم نتيقن من صدق الأخبار التي تحكي لنا سيرهم، أو كيف نؤمن بهم، ونحن نشك أساسا في وجودهم. وبالمقابل ليس لنا مصدر موثوق لمعرفة هؤلاء الرسول عليهم السلام غير القرآن والسنة النبوية.

وما يجب الإشارة إليه أيضا أن هذا القصص ورد ضمن كتاب للتشريع، ولم يرد منفردا، وهو يتعبد بتلاوته. ولا أحد يقرأ كتاب الله تعبدا، وهو يشك في صدق جزء منه، أما الأدب فهو خلاف ذلك، فلا نحسب أن هناك قارئا يقرأ رواية أو قصة وإن كانت تاريخية وهو يعتقد صدقها، ولو سُئل عن صدقها من عدمه لقال هي

مجرد رواية. إذن فالأدب يُظن به عدم مطابقته للواقع، وإن لم نهتم بالبحث في ذلك. وقصص القرآني صادق وصدقه لا يمنعه من تحقيق الأثر المبتغى منه سواء كان تاريخيا أو جماليا.

---

[1] سورة القصص:11

[2] سورة الكهف: 64

[3] فخر الدين الرازي، التفسير الكبير (مفاتح الغيب)، تفسير سورة آل عمران ، ج 18، ط1، دار الفكر، 1981، ، ص 87

[4] سورة آل عمران: 62

[5] فخر الدين الرازي، المرجع السابق، ج8، ص92

[6] ينظر تقي الحسني، القصص القرآني قراءة في كتابات المحدثين العرب، صحيفة المثقف، ع 3385، https://www.almothaqaf.com . (2015/12/12

[7] ينظر عبد الرحمن بن رجا الله الجامعي السلمي، النص القرآني في منظور الدراسة الأدبية: الموقف والمنهج، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، ع1، 2009، ص 3

[8] ينظر رمضان خميس الغريب، موازنة بين منهجي مدرسة المنار ومدرسة الأمناء في التفسير وعلوم القرآن، ط1، دار البشير، القاهرة، 2018، ص 115

[9] ينظر احميدة النيفر، الإنسان والقرآن وجها لوجه (التفاسير القرآنية المعاصرة) قراءة في المنهج، ط1، دار الفكر ، دمشق، 2000، ص130

[10] أمين الخولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، ط1، دار المعرفة، مصر، 1961

[11] نفسه، ص 304

[12] https://www.almothaqaf.com/ ينظر أحمد بابانا العلوي، المستشرقون والدراسات القرآنية، صحيفة المثقف، ع 2940، (2014/09/23)،

[13] ينظر احميدة النيفر، المرجع السابق، ص 130

[14] محمد أحمد خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، ط 4، سينا للنشر، 1999، ص 31

[15] أنجز الرسالة سنة 1942، ثم نشرها بعد ذلك تحت عنوان" محمد والقوى المضادة"، ينظر محمد أحمد خلف الله، محمد والقوى المضادة، ص6

[16] محمد أحمد خلف الله، المرجع السابق، ص 32

[17] ينظر نفسه، ص 37

[18] نفسه ، ص 152

[19] نفسه، الصفحة نفسها

[20] محمد الخضر حسين، بلاغة القرآن، دار النوادر، ط1،سوريا، 2010، ص 122

[21] نفسه، ص 127

[22] القصة مشهورة، يظر السيوطي أسباب النزول ، سورة الكهف، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 2002، ص 168،

[23] خلف الله ، المرجع السابق، ص 53

[24] سورة النمل: 76

[25] تفسير ابن كثير، ج6، ، تح: سامي بن محمد السلامة ط2، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، 1999، سورة النمل، الآية 76، ص 210

[26] سورة النساء: 46

[27] سورة البقرة:79، وينظر تفسير الآية في :ابن كثير، تفسير القرآن الكريم ج1، ص 312

[28] .سورة فصلت: 42

[29] سورة آل عمران: 62

[30] ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، ج2، ص 55

[31] د. إسرائيل فنكلشتاين بروفيسور ورئيس قسم علم الآثار في جامعة تل أبيب، ونيل إشر سيلبرمان مؤرخ وباحث أمريكي

[32] محمد احمد خلف الله، المرجع السابق، ص 58

[33] نفسه، ص 66

[34] نفسه، ص83

[35] نفسه، ص66

[36] الزمخشري، تفسير الكشاف، عن قائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج6، تح: خليل مأمون شيحا، ط3، دار المعرفة، بيروت، 2009، ص 270

[37] سورة النمل: 34

[38] ينظر تفسير ابن كثير للآية 34 من سورة النمل، 190/6

[39] سورة آل عمران: 122-125

[40] محمد أحمد خلف الله، المرجع السابق، ص 67

[41] ينظر نفسه، ص 81 وما بعدها

[42] سورة النساء: 46

[43] محمد احمد خلف الله، ص 87

[44] قال الله تعالى:" فحملته فانتبذت به مكانا قصيا، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا") سورة مريم: 25)

[45] سورة سبأ:14

[46] محمد أحمد خلف الله، ص88

[47] محمد الخضر حسين، بلاغة القرآن، ص 563

[48] نفسه، الصفحة نفسها

[49] محمد أحمد خلف الله، المرجع السابق، ص165

[50] ينظر نفسه، ص ص 178- 181

[51] ينظر نفسه، ص ص 90- 91

[52] نفسه، ص 130

[53] نفسه، ص91

[54] نفسه، ص156

[55] نفسه، ص 163

[56] نفسه، ص 181

[57] سورة المائدة: 116- 117

[58] محمد أحمد خلف الله، المرجع السابق ، ص 83

[59] محمد الخضر حسين، ، ص 123

[60] عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه مع دراسة تطبيقية لقصتي آدم، ويوسف، دار المعرفة، بيروت، 1985، ص9

[61] نفسه، ص 49

قائمة المصادر والمراجع:

1-المؤلفات:

1- الخطيب عبد الكريم ، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه مع دراسة تطبيقية لقصتي آدم، ويوسف، دار المعرفة، بيروت، 1985

2- الزمخشري أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، تفسير الكشاف، عن قائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج6، تح: خليل مأمون شيحا، ط3، دار المعرفة، بيروت، 2009

3- ابن كثير أبو الفداء إسماهيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، ج1،ج6، ج8، تح: سامي بن محمد السلامة ط2، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، 1999

4-السيوطي جلال الدين أبي عبد الرحمن، أسباب النزول المسمى " لباب النقول في أسباب النزول ، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 2002

5- محمد الخضر حسين، بلاغة القرآن، دار النوادر، ط1،سوريا، 2010

6- خلف الله محمد أحمد ، الفن القصصي في القرآن الكريم، ط 4، سينا للنشر، 1999

7- الخولي أمين ، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، ط1، دار المعرفة، مصر، 1961
8- النيفر احميدة ، الإنسان والقرآن وجها لوجه (التفاسير القرآنية المعاصرة) قراءة في المنهج، ط1، دار الفكر ، دمشق، 2000
9- الغريب رمضان خميس ، موازنة بين منهجي مدرسة المنار ومدرسة الأمناء في التفسير وعلوم القرآن، ط1، دار البشير، القاهرة، 2018
10- السلمي عبد الرحمن بن رجا الله الجامعي ، النص القرآني في منظور الدراسة الأدبية: الموقف والمنهج، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، ع1، 2009
11- الرازي فخر الدين ، التفسير الكبير (مفاتح الغيب)، تفسير سورة آل عمران ، ج 18، ط1، دار الفكر، 1981

2-مواقع الأنترنت:

1- تقي الحسني، القصص القرآني قراءة في كتابات المحدثين العرب، صحيفة المثقف، ع 3385،(2015/12/12)
https://www.almothaqaf.com
2- أحمد بابانا العلوي، المستشرقون والدراسات القرآنية، صحيفة المثقف، ع 2940، (2014/09/23)،
https://www.almothaqaf.com